سقراط

الرجل الذى جرؤ على السؤال

ألفت هذا الكتاب، الكاتبه كورامسن Cora Mason وترجمة الاستاذ محمود محمود.

لقد كتب عن «سقراط» من الكاتبين، أفلاطون فى «مجلس شرابه» و «محاوراته»، وزينوفون فى «ذكرياته» وقد وقفت الكاتبة امام هذه الكتب ولكنها لم تمس ما بها من آراء إلا مساً رقيقا.

على أن أفلاطون وزينوفون قد رسم كل منهما لسقراط صورة تختلف عن صورة الآخر.. صورة متباينة أو متعارضة ولكنهما فى النهاية تكمل إحداهما الأخرى.

والحقيقة أن صعوبة الكتابة عن سقراط تتمثل فى أنه لم يخط حرفا ولم يترك أثرا مكتوبا فليس أمام المرء إلا أن يستقى معلوماته ممن سبقوا إلى الكتابة عنه لاسيما إذا كان هؤلاء من المعاصرين له كتلميذيه أفلاطون وزينوفون فقد عاش سقراط فيما بين ٤٦٩-٣٩٩ قبل الميلاد.

نستطيع أن نصف «سقراط» فى عبارة أو عبارات قصيرة ولكنها بعيدة المدى.. لقد علم سقراط، الناس أسلوب التفكير.. ودعاهم إلى تحكيم العقل والى التمسك بالأخلاق.. وما بالقليل هذا.. وإن كلفه الكثير.. بل كلفه حياته.

كان شخصية فذة وإن كان متواضعا شأن العلماء.. فقد قيل له إن آلهة معبد أبولو فى دلفى وصفوه بأنه أحكم رجل فى بلاد اليونان فعلق سقراط على هذا القول بقوله (إنه لم يفهم معنى لهذا الوصف إلى أن تبين له أنه بينما غيره من المفكرين يعلنون معرفتهم للأمور وهم غارقون فى الجهالة، فإنه الوحيد الذى لا يعرف من الأمور شيئا.

ولنبدأ قصة سقراط أى قصة الصراع القائم والدائم بين جمود الرأى وحرية الفكر على مدى الأيام والدهور.

بداية ولد سقراط لأبوين كادحين فأمه كانت «قابلة» وأبوه كان صانعا وعلى التحديد نحاتا.

وإذن فقد كان هناك كما يقول الكتاب سفرونسكس النحات، واقفا الى جوار سرير زوجته فيناريتى، ينظر الى يدى ابنه الوليد الجديد ويرى فيهما بذرة الصناعة. ولو عرف الحق لأدرك أنه كان طوال الوقت أبا لفيلسوف سيولد بعد..

وينمو الطفل ويدخل المدرسة فإذا برفيق المدرسة وجاره فى السكن يقول: عندما رأيت سقراط لأول مرة، حسبته أقبح صبى فى أثينا.. كأنما كانت المادة التى صيغ منها وجهه أكثر خشونة وأشد صلابة من المادة التى صيغ منها غيره من الأطفال.. عيناه تجحظان كعينى ضفدعة، وشفتاه غليظتان وأنفه الأفطس يبدو كأنه دلك على طريقة خاطئة وهو فى المهد. وكانوا يسمونه فى المدرسة «وجه الضفدع».

ولم يغضب سقراط ممن كانوا يرونه شبيها بالضفدع من رفاقه بل كان يعلق على قولهم ساخرا: إن العيون التى تشبه عينيه إنما خلقت لتنظر فى جميع الجهات.. وأن الأنف الأفطس يلتقط الروائح أحسن مما يلتقطها أنف طويل مستقيم.

ويبدو أن هذه السخرية كانت مجرد استعلاء فقد أثر، عنه، أنه كان يدعو الآلهة قائلا (اجعلينى جميلا فى داخلى)

ويدعوها مرة أخرى أن (تهبه كنوز الحكمة، ونفسا متزنة تحمل هذه الكنوز..)

إنه العزاء فى التعويض.. أقصر الأمل فى التعويض.. إن وسامة الروح قد تفوق وسامة الوجه.

ولما شب سقراط وأخذ فى الحديث مع الناس انتهج طريقة خاصة به.. يسأل الناس سؤالا تلو الآخر ليقف على دخيلة جليسه أو محدثه.. وكانت هذه الطريقة تربك المسئول ولكنها كانت تلفت الأنظار أو تسر السامعين.

كان ولوعا بمعرفة كنه الأشياء وحقيقة الأفكار خاصة فيما يتعلق بالآلهة التى نصبها اليونان دون أن تتميز عنهم أو يميزوها عنهم فهى مثلهم لا تكف عن الصراع بألوانه.. بل قد تلج فيه وتوغل فى القسوة وتمعن فى الضغينة.. آلهة اليونان يكيد بعضها لبعض أو يفقأ عينه كما فعل بوز بأود يسيس الذى فقأ عين ابنه فكان كلما ركب البحر أثار فى وجهه عاصفة واذا لم يستطع أن

يقبض على أوديسيس نفسه، أنزل العقوبة بربان السفينة وملاحيها الذين حملوه على سفينتهم.. بل إن بوزيدون حول مرة إحد السفن إلى حجر بعدما خرج منها أوديسيس واستقرت السفينة وصارت جزيرة تذكر الأجياد بألا يعينوا عدوا من أعداء إله البحر بوزيدون.

وتدفع المقارنة إلى ذهنى إيزيس التى ذهبت إليها كليوبطره فى محنتها، وتقول كما صورها أمير الشعراء أحمد شوقى:

ايزيس ينبوع الحنان تعطفى ... وتلطفى لضراعتى وسؤالى
إنى وقعت على رحابك فارحمى ... ذل الملوك لمجدك المتعالى

وأتذكر مشاركة «نفتيس» ايزيس أحزانها على اوزوريس

استقر فى نفس سقراط الطفل أقاصيص الآلهة اليونانية التى كانت كما تقول المؤلفه (تتشاجر وتكذب وتسرق وتهبط فى صورة الناس تحمى أصدقاءها أو تؤذى أعداءها.. ووقع سقراط فى خضم من الآراء المتباينة مرة والمتقابلة حينا والمتعارضة آنا والمتناقضة تناقضا شديدا أحيانا.. عن أصل الاشياء وأصل الآلهة أيضا.

وعرف سقراط فى أثينا برجاجة العقل ووقدة الروح.. عرف بالحكمة فكان يندب للقاء كل عالم يهبط المدينة وبالتالى يدعى للعشاء فى بيوت لا ترحب عادة بمن يعملون بأيديهم وكان اليونانيون يهبطون بالعمل اليدوى وأصحابه.

ولم يأبه سقراط بالطبقة المترفعة أو التى تصطنع الكبرياء كل ما يهمه أن يتعرف إلى كل قادم. بل إلى الناس جميعا.. إنه ولوع بسبر أعماق النفس الإنسانية.. وله ميزانه الخاص فى تقييم الناس والأفعال.. كان يقيس الناس بأفكارهم وليس بأموالهم.. ولكنه كلما أمعن فى التفكير، اشتدت الأمور تعقيدا.. وزاد فى حيرته، كراهية الناس للتعليل وتقاعسهم عن الخير أو البحث عنه..

وقرر سقراط أن هذا البحث عن الخير هو ضالته المنشودة إن الخير يستحق أن يكون دستور حياة

كانت مشكلة سقراط: السببية.. كان السؤال: لماذا؟ وكانت مشكلة سقراط، الأخرى: الإنسان.. ليس العضلات والعظام ولكن «النفس».

والذى لا يتردد فى سيرة سقراط أنه كان جنديا شجاعا أيضا بل لاحظ قواده أنه كان بالغ الشجاعة كما لاحظ زملاؤه فى السلاح أنه كان حمولا لا يشكو برداً أو جوعا أو طول مسير.. وحين كان يلف الجنود أقدامهم بالجلد والفلين كان هو يمشى بأقدام عارية وفى مقدمة الجيش لكى يحمى صديقا جريحا، مخاطرا بحياته.

وكان سقراط الجندى، إذا خلا لنفسه، وبنفسه، يحيا فى الجيش حياة التأمل والفكر لا حياة الجنود بصرامتها.. كان طويل السبحات كثير السرحات.

وقد أسلمته هذه الحال، إلى حياة الفكر، بعد خروجه من الجيش.. فلم يعد نحاتا كأبيه وهنا ثارت عليه زوجته التى تحسبت الضيق فى الرزق وما يجره هذا من معاناة تتكبدها الأسرة.. ولكن سقراط مضى فى قراره لم ينثن له عزم وأردف هذا بتعديل نظامه فى الحياة فتحاشى النوم الثقيل الذى يعقب الإكثار من الطعام كما تحاشى النشوة النزقة التى تصاحب الشراب.. كان يخرج من بيته فى البكرة الندية مع شروق الشمس ويقضى سحابة يومه حيث يتجمع الناس فى السوق أو الملعب يدرس النفس الإنسانية من خلالهم.. ولم تحجب هذه الحياة الجادة فهمه للنكتة واختلاطه بالناس بل اشتد إخلاصه لأصدقائه وتخلص من قلقه وثورات الغضب التى كانت تغلبه فى شبابه.. لقد آضت نفسه إلى قرار.

فى أواسط العمر كان سقراط يتمتع بطمأنينة عجيبة وكأنه أسر أمرا لا يبغى عنه حولا..

بدأ سقراط يبحث عن «الخير» الحقيقى الذى يعمر النفس بهناءات لا تبلى مؤمنا أن الخير ليس وعظا أو إرشادا أو دروسا تلقى.. إن الخبراء فى الخير كما يقول ليسوا أولئك الذين يعلمون الخير، إنما هم من يملكونه.

قال سقراط مرة: (إننى أكتسب من الأصدقاء الطيبين متعة لا يكتسبها غيرى من الجياد المطهمة أو الكلاب الجيدة أو ديوك القتال).

كان يرى فى صدق الصديق المناخ الذى يزدهر فيه الخير طلبته المنشودة

آن لنا الآن أن نقف مع الكتاب عند زوجة سقراط التى تواترت أخبار سيرته أنها كانت دائمة الثورة عليه.

بداية اسمها «زانثب» وقد تعرف إليها سقراط عن طريق الخاطبة أو عن طريق إحدى قريباته كما كانت تتم الزيجات فى أثينا فى ذلك الحين.. فتاة رآها تحمل جرة الماء إلى البئر فى أقصى الشارع.. لم يعرفها قبل أن يقترن بها، ولم تعرفه.. تزوج منها لأنه كان يريد لنفسه ذرية.. وتزوجت منه يخايلها حلم المرأة بالبيت والعش والأمومة.. كانت تفتقد فيه الوسامة ولكنها كانت تنشد الأمن والعطف والرعاية.. وكانت تصغره بعدة سنوات، وقد كان سقراط عطوفا بل كان صبورا على تأنيبها وما أكثر هذا التأنيب. سئل سقراط مرة:

أيهما أفضل الزواج أم العزوبة؟ فقال: أيهما فعلت ندمت عليه. وهو جواب يحمل تأنيبا للسيدة «زانثب» ولكن على طريقته المتفلسفة التى تسخر من الألم ولا تضيع وقتها فى حرب غير متكافئة.

***

كان العام ثلاثمائة وتسع وتسعين قبل الميلاد وقدجاوز سقراط فى ذلك الحين السبعين من عمره.

كان أفلاطون فى ذلك الوقت فى الثامنة والعشرين من العمر يتحرق شوقا بعد خمود الحرب الأهلية وعودة الديمقراطيين، أن يعمل بالسياسة بعد أن أمست المدينة مكانا للرجال المهذبين مرة أخرى كما يقول.

كل شىء هادىء نسبيا، فى أثينا فى نهايات القرن الرابع قبل الميلاد. ولمس سقراط هذا الهدوء وارتاح إليه فقد كان دائما يريد مدينة نظامية ويعتقد فى طاعة القوانين غير أنه لم يعتقد قط فى تكميم أفواه الناس ليبدو الأمر مستقرا..

كان سقراط فى رحلة البحث عن الخير، قد وصل إلى ايمان أن الحق شائع بين الجميع.. وأن فى وجوده الضمان لفرض السلام والوفاق.. والضمان فى الوقت نفسه لاستئناف بحثه عن الحق.. وإذا بهذا الذى يستشرف إلى الحق والخير فى الحياة، يدعى إلى المحكمة لتحكم عليه بالموت.. وتأكدت الإشاعة التى سرت فى المدينة منذ قليل.

فى ذلك اليوم لم يذهب سقراط إلى السوق كعادته ولكن اسمه كان يتردد فى السوق كما لم يحدث من قبل.

وجاء يوم المحاكمة.. وذهب أصدقاء سقراط إلى بيته ليكونوا إلى جانبه وفى مقدمتهم أقريطون وأفلاطون.. ووجدوه هادئا مرحا كعادته فحاولوا أن يتكلفوا المرح وهم يعتصرون.. وما لبث سقراط أن لزم الصمت وهو يخطو خارج البيت ولزمه فى الطرق وكأنه يسمع صوتا آتيا من داخله.. وصل سقراط وصحبه إلى المحكمة.

وكان المحلفون فى طريقهم اليها ويبلغ عددهم واحداوخمسمائة انتخبهم الأثينيون ليمثلوا المدينة.

بدأ الاتهام وسقراط يسمع وهو جالس فى موقعه وكأنهم يتكلمون عن رجل آخر فالأوصاف التى ساقوها لا تنطبق عليه.. لقد كانوا يتكلمون عن رجل يحب الفوضى.. رجل ليس له مبادىء، غايته الكبرى أن يحطم الآخرين..

هل هذه أوصاف سقراط؟ لا يصدق ذلك أحد وأحسبهم لا يصدقون أنفسهم بدورهم.. ولكنهم كانوا يخشون على المزايا التى يتمتعون بها أن تزلزلها دعوة سقراط إلى العدل والحق.

كان أفلاطون يجلس فى مقدمة الصفوف حتى لا تفوته كلمة ولكن ما سمعته من إلباس الباطل ثوب الحق غير وجهته.. غير رأيه واستبدل السياسة بالفلسفة..

وهكذا هزت المحاكمة والمحكمة أفلاطون وغيرت حياته كلها وكفر بالسياسة واعتنق الفلسفة.. نفض يده من الحلم أو الاختيار الأول.. زهد كلية فى أن يكون رجل سياسة وآثر أن يكون فيلسوفا.لقد دون أفلاطون خطاب سقراط فى المحكمة على ورق البردى فى دقة وعناية وأطلق عليه «دفاع سقراط.. مخالفا الأثينيين فى تسمية دفاع المتهم «خطاب للتبرير».

بدأ سقراط دفاعه قائلا: (يارجال أثينا) ولم يقل سادتى أعضاء المحكمة.

كانت براعة استهلال من سقراط، ولكنها كانت أول تحد ومضى سقراط فى خطابه لم يزايله هدوء الحكيم، ورباطة جأشه قال سقراط فى غير انفعال: (إنّ ما سوف يحطمنى فى النهاية -إن تحطمت- لن يكون ملتس أو أنيتس، ولكن حديث العالم السىء وشعوره السىء، الذى كان سببا فى هدم كثير من الرجال الطيبين الآخرين فيما مضى- أجل وسوف يكون سببا فى المستقبل كذلك فيما أحسب ولن يكون الأمر معى على خلاف ذلك).

وسرت همهمة بين الحاضرين وقال أحد القضاة لجاره وهو غاضب: (استمع إلى هذا الحبيس الذى يمثل دور القاضى فإذا كنا نحن الخمسمائة جميعا ندينه بالجريمة، ويموت كما يموت المجرم فإنه يبقى مع ذلك رجلا خيرا. أليس كذلك؟ أية مادة هذه التى يعلمها الشباب فى ديمقراطيتنا! إنى أعرف فى أية ناحية أعطى صوتى).

واصل سقراط حديثه رافعا صوته قليلا حتى أمكن سماعه بسهولة على الرغم من ضجيج الجمهور وقال: (ربما قال أحدكم: ألم تخجل ياسقراط لأنك ارتكبت أمرا أدى بك الآن إلى خطر الموت؟

وجوابى على هذا «إنك تخطىء ياصاح إذا حسبت أن المرء يجب عليه أن يوازن بين فرص موته وفرص حياته- وأقصد المرء الذى له قدر. هل تظن أن أخيل أقام للموت والمخاطر وزنا؟..)

ومضى سقراط غير هياب أو وجل: (إنى كجندى يارجال أثينا وقفت حيث أو قفنى رؤسائى من الضباط- أولئك الضباط الذين اخترتموهم لكى يكون نهم على سلطان.. وقفت عند بوتديا وعند امفيبوليس ودليم كما يقف أى إنسان.. وعرضت لى فرصة الموت.. أما الآن فإن الله هو الذى يوقفنى.. ذلك ما أعتقده وما أفهمه.. إنه الإله الذى يأمرنى أن أكرس حياتى لممارسة الفلسفة بالبحث فى نفسى وفى غيرى.. وإنى لأرتكب أمرا إذا يارجال أثينا لو أنى تخليت عن هذا الواجب خشية الموت أو أى شىء آخر).

وارتفعت قامة سقراط فى أعين لداته وعداته على السواء حتى أولئك الذين لم يفهموه من قبل، أخذوا يراجعون أنفسهم ويثوبون إلى الصواب. حتى أنيتس -موجه الاتهام- ربما أحس ذلك إلى حد، ما.

لم يقبل سقراط أن يأتى بزوجته وأطفاله تشفع له وتبكى استدرارا للعطف كى يخلوا سراحه.. بل مضى فى سخريته المريرة أو مرارته الساخرة ولم تزاوله الكبرياء يقول:

إن القاضى قد أقسم ألا يقدم الفضل كما يشاء له الهوى، بل أن يقيم العدالة طبقا للقانون.. ولا ينبغى لنا أن نعودكم الحنث فى يمينكم ولا ينبغى لكم أن تسمحوا لأنفسكم بالانزلاق فى هذه العادة.

وكأن سقراط كان يسجل للتاريخ.. كان يعرف أنه الأخلد ذكرا والأبقى فى ذاكرة الأجيال التى تعيش على المواقف حتى بعد أن يصرع البغى أصحابها. وليس أدل على هذا من قوله لمن يحاكمونه.

إن من الخطر على المرء أن يقف فى معارضة نزيهة سواء تحت الحكم الديمقراطى أو تحت دكتاتورية الثلاثين..إن الرجل المخلص لا يكاد يستطيع أن يخدمكم فى وظيفة عامة مع بقائه حيا.

وتبلغ الشجاعة فى سقراط ذروتها وهو يقول مرفوع الرأس:

سواء لدى أن تطلقوا سراحى أو لا تطلقوه. ولكن أيا ما تفعلون، فلتفعلوه وأنتم تعلمون أنى لن أغير مسلكى، حتى لو حكمتم على بالموت عدة مرات!

وسقراط الذى آثر فضيلة التواضع على مسيرة حياته كلها، آثر فى المحاكمة أن يتعالى على جناته، وبحق.. لقد حذرهم سقراط من عليائه وهو سجينهم: (خير لكم أن تستبقونى، فلن يتيسر لكم أن تجدوا رجلا آخر مثلى!).

وخلت المحكمة للمداولة. ثم جاء المنادى وقد صدر قرار المحكمة بأغلبية صغيرة فإن ثلاثين صوتا فى الجانب الآخر كانت تقلب القرار وسجل كاتب المحكمة حكمها.. ومس المنادى سقراط بعصاه، إشارة إلى أنه وجد مذنبا!!

وعلى الرغم من أن أصدقاءه كانوا يتوقعون هذا الظلم فقد كان وقع الحكم عليهم شديدا عند إعلانه.. وشديدا أيضا على المحتشدين فى المحكمة جميعهم.. وقد انهمر باكيا ذلك الرجل البسيط الذى جاء من سوق الزيت.

الوحيد الذى لم يندهش للحكم أو لنتيجة التصويت، إنما هو سقراط.

واقترحوا عليه أو طلبوا إليه أن يقترح العقوبة!!

وهنا قال فى سخرية لا تخفى: (قدموا لى الطعام بدون مقابل مادمت حيا فى ملجأ المدينة.. إنكم تكافئون الظافرين فى أولمبيا وقد فعلت أكثر جدا من أن أفوز لكم فى سباق.. ثم إنى فوق ذلك -رجل فقير- فى حاجة الى معونتكم كى أواصل عونى لكم).

وزمجر المحكمون وأيقن أصدقاء سقراط من النهاية

كان يستطيع أن يطلب النفى ومن الراجح أنه كان سيجاب إلى طلبه لأن الحكم كان بأغلبية طفيفة ولكنه قال: (إن كنت لا أستطيع أن أقول الحق فى مدينتى الخاصة أثينا، فكيف يسمحون لى بقوله فى أى مكان آخر.. وأنا لا أستطيع أن ألزم الصمت لأن الله قد أمرنى أن أتكلم.. وإن كنت أعرف أنكم لا تؤمنون بذلك.. وإذا قلت إن الواقع أن أعظم خير يصيب الإنسان هو أن يتحدث كل يوم عن الخير وعن الأمور الأخرى التى سمعتمونى أناقشها، باحثا فى نفسى وفى غيرى- لو قلت إن الحياة التى لم تبحث لا تستحق أن يعيشها إنسان. إن الحق هو ما أقول يارجال أثينا.

إن الموت بطىء، وقد لحق بى، وأنا شيخ حسن بطىء. أما الشر فسريع، وقد لحق بكم، على الرغم من مهارتكم. لابد لى أن أعانى حكمى، ولكن لابد لكم كذلك أن تعانوا حكمكم.

ثم توجه بالعزاء لأصدقائه قائلا كيف يسرى عنهم (سوف تكون النتيجة خيرا كذلك.. فإما أن يكون الموت نوما فحسب، أو لم تزايله روح الدعابة، بعد.

وذهب إليه صديقه أقريطون فى سجنه يعرض عليه حلولا منها تخليصه من السجن بأى صورة حتى الرشوة فرفض سقراط ولقن «أقريطون» درسا ظل يذكره قال له: إن مجرد الحياة لا يهم، وإنما تهم الحياة التى تلتزم الصواب.

* ان الشر لا يرد بالشر

* ان الشر لا يمكن أن يصدر عن إنسان خير.

وفى حنان بالغ يعرفه الوطنى الحميم قال سقراط إنه لا يفر من مدينته إلى مدائن أخرى أحسن قانونا.. كيف أستطيع أن أهدمها بعد أن عشت فيها ولو هدمتها كيف أستطيع أن أتكلم عن الخير بعد ذلك.

وأخذ سقراط يدلك ساقه حيث خدرتها وأدمتها الأصفاد. وجاءه سجانه يستأذنه أن الوقت قد حان.. وأخذ يبكى وينعته بأنبل وأرق الصفات وأنه خير انسان أتى إلى ذلك المكان.

وهنا سأله أقريطون والكلمات تتعثر على شفتيه:

(على أية طريقة يريد أن يدفن؟).

وهنا قال سقراط مبتسما (على أية طريقة تحبون- إذا لحقتم بى ولم أفر منكم).

وبكت زوجة سقراط بحرقة وكانت قد قضت الليلة الأخيرة معه فى سجنه ومعها أطفالها.. وفى الصباح ودعهم وطلب إليها أن تعود بالأطفال إلى البيت ليجنبها المشهد الدامى: الإعدام. المشهد الذى لم يستطع الرجال من أصدقائه أن يحتملوه فصرخ من بينهم أبولودوس صرخة مدوية كادت تحطم من سمعها فقال له سقراط فى ثبات (ماهذا! الذى تفعلون. لقد كان ذلك سببا من الأسباب الكبرى التى حفزتنى إلى إبعاد النساء- كى لا يقعن فى هذا الخطأ. لقد سمعت أن الرجل ينبغى أن يموت فى صمت فالزموا السكون وتمسكوا بالصبر).

وجاءوه بالكأس وقد دسوا له السم فقال ولم تغادره ابتسامته: أرجو أن تكون الرحلة سعيدة.

***

والآن يصمت النثر ويترك الختام للشعر فقد صور أمير الشعراء المأساة أبلغ تصوير فى أبياته:

سقراط أعطى الكأس وهى منية ... شفتى محب يشتهى التقبيلا

عرضوا الحياة عليه وهى ذليلة ... فأبى وآثر أن يموت نبيلا

إن الشجاعة فى القلوب كثيرة ... ووجدت شجعان العقول قليلا